20150411-6004-l

السفير
السبت 11 نيسان 2015 ـ العدد 13043
Saturday April 11, 2015

40 سنة على الحرب اللبنانية

الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي.. والانزلاق نحو الحرب الأهلية 1968 ـ 1975(1)

الاحتقان اللبناني ـ الفلسطيني.. يكشف عجز الجيش ويثير قلقاً مسيحياً

نبيل الخوري (*)

لم تكن الحرب الأهلية اللبنانية (1975 ـ 1990) وليدة لحظة بوسطة عين الرمانة. تلك الشرارة، مهّدت لها وقائع وأحداث، بعضها بنيوي مرتبط بتأسيس الكيان اللبناني، ولا سيما مرحلة ما بعد ولادة صيغة العام 1943 (الاستقلال)، وبعضها الآخر متصل بموقع لبنان الإقليمي وتحوله إلى ساحة صراع وتبادل رسائل.

بعد حرب حزيران 1967، أدّى تسلسل الأحداث في لبنان إلى خلق أزمة لبنانية ـ فلسطينية سرعان ما تحوّلت إلى توترات أمنية بين 1968 و1975. هذه التوترات، تحوّلت بدورها إلى صراع مسلح في 13 نيسان 1975.

تمحورت هذه الأزمة حول تزايد عدد اللاجئين الفلسطينيين وتكثيف النشاط المسلّح الفلسطيني على الأراضي اللبنانية. اشتعال المواجهة العسكرية مع إسرائيل وتزايد الاعتداءات الإسرائيلية ضد لبنان ساهما في تفاقم الأزمة. في هذا السياق، تمّ تأسيس ميليشيات تابعة للأحزاب المسيحية تحت شعار «مواجهة الخطر الفلسطيني وحماية الوجود المسيحي». كذلك، تسلّحت القوى القومية العربية واليسارية اللبنانية وتحالفت مع المقاومة الفلسطينية. هكذا بدأت عملية خلق الميليشيات تأخذ مجراها من دون أن تتمكن الدولة اللبنانية من حماية سيادتها ووضع حد للتوترات الأمنية المتصاعدة داخلياً.

يمثل النشاط الفلسطيني المسلّح سبباً من أسباب اندلاع حرب لبنان الأهلية. لكن الخلاف اللبناني ـ اللبناني في شأن هذا النشاط لم يكن شرطاً وحيداً للانتقال من حالة الخلاف إلى حالة الاقتتال الأهلي. فالتباينات السياسية والاجتماعية بين اللبنانيين تمحورت حول أزمة النظام السياسي الطائفي وانعدام العدالة الاجتماعية.

لم تكن تلك التباينات أخف وطأةً من العناصر الخارجية المزعزعة للاستقرار. أما إدارة هذه التباينات، فكانت سيئة لدرجة أن أداء كل من أركان السلطة والمعارضة، المدعومين أيضاً من أطراف خارجية، كان كفيلاً بتعقيد الأزمة السياسية الاجتماعية الداخلية بدلاً من إيجاد حل لها. الأداء غير العقلاني أدى كذلك إلى تأجيج الأزمة اللبنانية ـ الفلسطينية عوضاً عن معالجتها والحد من عواقبها.

البحث في تاريخ الحرب اللبنانية يبقى ورشة واسعة ومفتوحة. المساهمات في هذا الشأن لا تُحصى. ملفات عدة تم فتحها. أسرار كثيرة وخطيرة تم كشفها، وثمة أسرار لم يُكشف النقاب عنها بعد.

برغم ذلك، تستمر الحاجة إلى مضاعفة الجهود من أجل استكمال البحث وفهم جوانب ما زالت مجهولة في تاريخ الحرب اللبنانية. لهذه الغاية، تهدف سلسلة المقالات هذه إلى تسليط الضوء على نظرة الديبلوماسية الفرنسية من خلال مراجعة بعض أوراق ووثائق الأرشيف الديبلوماسي الفرنسي وعلى موقف فرنسا ودورها خلال المرحلة التي شهدت، بين 1967 و1975، انزلاق لبنان نحو هذه الحرب التي دامت 15 عاماً.

يهجرون بيوتهم هرباً من القصف على الأرجح، (بين الجيش) وفصائل المقاومة (الفلسطينية) ومحرضيها، فإن التوتر الحالي (1968) على الحدود الجنوبية قد يؤدي بسرعة إلى اختبار قوة بين الجيش والفدائيين أو ألى تفشي عدوى (العمل الفدائي)».

(أرشيف «السفير»)

بدأت نشاطات المقاومة الفلسطينية في الجنوب اللبناني تخلط الأوراق السياسية والأمنية اللبنانية اعتباراً من العام 1967. في تلك المرحلة، كانت فرنسا داعمة لحق العرب والفلسطينيين في استرجاع الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب حزيران 1967. كذلك، كانت في طليعة الدول الغربية التي تطالب بسلام عادل وشامل وتدافع عن حق الشعب الفلسطيني في الحصول على وطن مستقل. حذّرت فرنسا مراراً وتكراراً من أن عدم انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة وعدم تحقيق السلام سيؤدي إلى توسّع الصراع وانتشار الفوضى في كل منطقة الشرق الأوسط. لكن إسرائيل لم تصغ للتحذير الفرنسي ورفضت الولايات المتحدة الأميركية ممارسة أي شكل من أشكال الضغط عليها. هذا الأمر ولّد إحباطاً عارماً لدى الفلسطينيين وعزز ميلهم نحو خيار الكفاح المسلح.

من منظار القانون الدولي، تقر فرنسا بحق الشعوب في المقاومة من أجل تحرير أرضها من الاحتلال. لم يكن باستطاعة الديبلوماسية الفرنسية بالتالي نفي الطابع الشرعي لعمليات المقاومة العربية والفلسطينية ضمن الأراضي المحتلة بعد 4 حزيران 1967. إلا أن فرنسا كانت تخشى من النشاط الفلسطيني المسلح في لبنان، من تداعياته على الاستقرار الداخلي ومن خرقه لسيادة الدولة. هذا ما تبيّنه بوضوح برقيات سفرائها وتقاريرها الديبلوماسية في شأن الوضع في لبنان بين عامي 1968 و1969.

تفاؤل حذر

في خريف 1968، بدأت التوترات بين الجيش اللبناني ومجموعات من الفدائيين الفلسطينيين في الجنوب اللبناني. كذلك، بدأت إسرائيل تشن غارات واعتداءات ضد القرى الأمامية في الجنوب، رداً على عمليات المقاومة الفلسطينية. كان الجميع في لبنان وفي الخارج يترقب تطور ظاهرة العمل الفدائي. وقع الجميع في مأزق. فكيف يتمّ التسامح مع هذه الظاهرة من دون التضحية بالسيادة والأمن، وكيف يتمّ قمعها من دون تعريض السيادة والأمن والوحدة الوطنية لمخاطر بالغة، خصوصاً أن ثمة قوى لبنانية وازنة تؤيد العمل الفلسطيني المسلح؟

في منتصف شهر كانون الأول 1968، حاول سفير فرنسا في لبنان، بيير ميليه، استشراف وجهة مواقف الطوائف اللبنانية تجاه العمل الفدائي الفلسطيني. قراءته تسمح بالاستنتاج بأن توافقاً لبنانياً في شأن الموقف من هذا العمل لم يكن أمراً مستحيلاً آنذاك. فإذا كان «القادة المسلمون، وتحديداً مفتي الجمهورية، يأملون في حل توفيقي» لمسألة العمل الفدائي، أي إيجاد تسوية بين الجيش والفلسطينيين، إلا أنهم لم يكونوا «إطلاقاً مؤيدين لعملية تمركز الفدائيين» في لبنان، على حد قول ميليه.

عين فرنسا على الجيش

وبرغم إدراك السفير الفرنسي لضعف قدرات الجيش في وجه الفدائيين، الذين بدأوا يزدادون نفوذاً وقوةً، إلا أنه كان يرى بصيص أمل لأن «تلاحم الجيش و«لبنانيته» لا يبدوان أمرين متأثرين بالمواجهات» العسكرية التي اضطر الجيش إلى خوضها في جنوب لبنان مع المقاتلين الفلسطينيين. إذاً، تحليل الديبلوماسي الفرنسي في أواخر 1968 كان ميالاً إلى التفاؤل الحذر. فقد خلص إلى أن «عدم التوصل إلى اتفاق سريع، مكلف ومؤقت «اعتراف دولي بمبدأ حياد لبنان»، كما ورد في برقية ميليه. إذاً، كانت الديبلوماسية الفرنسية تتنبأ بكل ما حصل في لبنان لاحقاً.

الهجوم على مطار بيروت وتداعياته

بعد أقل من أسبوعين من هذا التحليل الديبلوماسي الفرنسي، شنت إسرائيل عدواناً ضد لبنان مستهدفة مطار بيروت، في 28 كانون الأول 1968. تم تبرير العدوان باعتباره رداً على عملية نفذها الفلسطينيون في 26 كانون الأول في أثينا، وليس في الجنوب اللبناني. هذا العدوان، الذي دانه مجلس الأمن في قراره 262 (31 كانون الأول) والذي أثار غضب فرنسا ودفعها إلى فرض حظر تام على بيع الأسلحة لإسرائيل، شكّل صدمة قاسية للبنانيين. ردود فعلهم المختلفة زادت من حدة الفرز السياسي في البلاد. علت أصوات رافضة لاستمرار العمل الفدائي وأخرى داعية إلى الدفاع عنه. على سبيل المثال، كانت البطريركية المارونية تعرب للفرنسيين عن خشيتها من أن «يوجّه الفدائيون، في وقت من الأوقات، سلاحهم ضد المسيحيين»، بحسب برقية لسفير فرنسا أثر لقائه مع أحد المطارنة الموارنة في 25 كانون الثاني 1969.

في المقابل، كانت القوى اليسارية تؤيد الانخراط في الكفاح المسلح ضد إسرائيل. هذا التناقض بين الوجهتين السياسيتين تجلى بشكل عنيف في تظاهرة 23 نيسان 1969.

تظاهرة 29 نيسان 1969

في 29 نيسان 1969، نظمت الأحزاب اليسارية اللبنانية والقومية العربية تظاهرة شعبية دعماً للفلسطينيين واحتجاجاً على محاولات القوى الأمنية اللبنانية قمع العمل الفدائي. الحكومة اللبنانية برئاسة رشيد كرامي لم ترخّص للتظاهرة. لكنّ منظميها عادوا وأطلقوها عنوةً، الأمر الذي أدى إلى صدامات دامية بين المتظاهرين وقوات حفظ الأمن في شوارع بيروت (...). فرضت الحكومة حظراً للتجوّل في أماكن التظاهر وأعلنت حالة الطوارئ في كل المناطق. هذه التظاهرة لم تساهم فقط في تعزيز الشرخ السياسي في البلد، بل سلطت الضوء أيضاً على الإشكالية (المستمرة) التي يواجهها الجيش اللبناني: يمارس دوره كاملاً في بسط السيادة وضمان الأمن على كامل الأراضي اللبنانية ويجازف بالتالي في تعريض الوحدة الوطنية للخطر، أم يعجز عن لعب دوره من أجل الحفاظ على وحدةٍ غالباً ما تكون هشّة؟

باريس: «لقد فات الأوان»

سرعان ما بدأ التفاؤل الفرنسي الحذر يتحول إلى تشاؤم. تكوّن لدى السفير الفرنسي الجديد، برنار دوفورنييه، انطباع بأن «لدى غالبية اللبنانيين رغبة، لا يتجرأون على البوح بها، في أن تستخدم الحكومة أسلوب القوة في وجه الفدائيين». لكن تقييم السفير يخلص إلى أن الأوان قد فات، لأن ارتفاع عدد الفدائيين «المنتشرين الآن (في نيسان 1969) في جنوب لبنان بات يجعل حل المشكلة أكثر صعوبة مما كان عليه قبل بضعة أسابيع». فالمشكلة التي تعترض عمل الجيش تكمن، وفق قول دوفورنييه، في أن مهمته لم تعُد محصورة في إضعاف الفدائيين وحسب، بل باتت تشمل «عملية الحفاظ على الأمن في الأحياء السكنية حيث إن الغالبية المسلمة تتعاطف مع الفدائيين».

لذلك، وفي معرض تقييمه لأداء الجيش بمناسبة تظاهرة 23 نيسان، وبعد ثنائه على قرارات الحكومة في حظر التجول وفرض حالة طوارئ، تساءل السفير دوفورنييه عما إذا كان رئيس الحكومة آنذاك، رشيد كرامي، «سوف يسمح للجيش بالاستفادة من سلطاته الاستثنائية من أجل إعادة بسط الشرعية في جنوب البلاد»؟

كرامي يقرر الاستقالة

يعني ذلك أن الديبلوماسية الفرنسية رأت أن الكرة كانت في ملعب رئيس الوزراء اللبناني (كرامي). لكنها لاحظت، في الوقت نفسه، أن رئيس الحكومة كان في موقع حرج. لأن «المسلمين اللبنانيين امتنعوا، حتى الوقت الحاضر (نيسان 1969) عن المشاركة بكثافة في التظاهرات، لكن من غير المستبعَد»، وفق دوفورنييه، أن ينجرّوا في نهاية المطاف إلى الانخراط في الحراك الشعبي الداعم للمقاومة الفلسطينية. هذه التوقعات دفعت الديبلوماسي الفرنسي إلى الشعور بمزيد من القلق من احتمال انزلاق لبنان نحو الفوضى. فالرئيس رشيد كرامي قرر الاستقالة ودخلت البلاد في أزمة حكومية محورها كيفية التعامل مع النشاط المسلح الفلسطيني. أما الجيش، الذي بذل كل ما بوسعه من أجل ضبط أنشطة الفدائيين بفاعلية ومنع تجاوزهم للحدود الجنوبية، بات يواجه مهمة بالغة الصعوبة نتيجة ضعف عديده، على حد تعبير السفير الفرنسي.

يبقى السؤال في معرفة ما تحمله محتويات الأرشيف الفرنسي حول إدارة أزمة تنامي الوجود المسلح الفلسطيني في لبنان بين 23 نيسان وتشرين الأول 1969، أي تاريخ اشتعال صدامات عسكرية عنيفة بين الجيش والفصائل الفلسطينية والتي انتهت بالتوقيع على اتفاق القاهرة الشهير. الحلقة الثانية تسلط الضوء على هذا الموضوع.

(*) دكتور في العلوم السياسية

مطار بيروت الدولي

- عدوان إسرائيلي جوي على مطار بيروت، في 28 كانون الأول 1968. بررته اسرائيل أنه جاء «رداً على عملية فدائية فلسطينية في 26 كانون الأول في أثينا».
- في 1976/6/27، أقفل المطار بعدما تعرض لسقوط عدد من القذائف واحتراق طائرة لطيران الشرق الأوسط ومقتل قائدها. أعيد فتحُه بتاريخ 1976/11/9.
- في 1982/6/7، المطار أقفل 115 يوماً بسبب الاجتياح الإسرائيلي. أعيد فتحُه في 1982/9/30.
- في 1983/8/11، أقفل المطار بسبب «حرب الجبل»، وأعيد فتحه بتاريخ 1983/9/28.

واشنطن تتحدث عن «نيات تخريبية سورية»!

كان الأميركيون يراقبون عن كثب تطور الوضع في لبنان بعد تظاهرة 23 نيسان 1969. يحتوي الأرشيف الفرنسي على وثائق حول المباحثات الرسمية وغير الرسمية بين الديبلوماسيين الفرنسيين والمسؤولين في وزارة الخارجية الأميركية. وبحسب إحدى البرقيات، اعتبر هؤلاء المسؤولون أن من شأن الاضطرابات التي رافقت التظاهرات أن تتسبب بخطر ضرب التوازن بين الطوائف الإسلامية والمسيحية وبتحفيز الصدامات مع إسرائيل.

ولفت سفير واشنطن في بيروت انتباه السلطات اللبنانية إلى الخطر الذي يمثله للبنان تبني سياسة عربية أكثر تشدداً. حذّر الأميركيون من أن سماح لبنان بعمل الفدائيين، سيعرضه لأعمال انتقامية إسرائيلية. مصلحة هذا البلد تقتضي بالتالي إبقاء أرضه، خصوصاً المناطق الواقعة في جنوب اللبناني، بمنأى عن الاضطرابات، حسب وجهة النظر الأميركية التي تم استعراضها في برقية ديبلوماسية فرنسية.

في معرض تقييم الأحداث الدموية التي وقعت خلال تظاهرة 23 نيسان، قال مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأوسط، جوزف سيسكو، للسفير الفرنسي في واشنطن، شارل لوسيه، خلال لقاء في 28 نيسان، إن «حوالي ثلثي الفدائيين المتواجدين في لبنان، قدموا من سوريا». أضاف أن عدداً منهم تورط في احداث 23 نيسان وفي المواجهات بين الفدائيين والجيش اللبناني، «الأمر الذي من شأنه أن يكشف بوضوح تام النيات التخريبية لدمشق»، على حد تعبير سيسكو. لذلك، راهنت الولايات المتحدة على الدور الذي بإمكان فرنسا لعبه خصوصاً لدى الحكومة السورية باتجاه تهدئة الوضع في لبنان.

«حروب» ضمن الحرب الأهلية

1976/1/26: انشقاق الملازم أحمد الخطيب عن الجيش اللبناني وإطلاق ما يُسمّى بـ «جيش لبنان العربي» من ثكنة مرجعيون لتبدأ حرب الثكنات العسكرية في أكثر أنحاء البلاد ومناطقها الشرقية والغربية وانضمامها لجيش لبنان العربي وبتاريخ 15 أيار 1991 صدر المرسوم 1204 الذي قضى بصرفه من الخدمة العسكرية.

1978/7/1: حرب المئة يوم أو حصار الأشرفية بين الجيش السوري و «القوات اللبنانية»، بدأت في 1 تموز 1978 واستمرت لغاية 7 تشرين الأول 1978.

1979/4/18: صدر مرسوم جمهوري يحمل الرقم 1942 يقضي بالاستغناء عن خدمات الرائد سعد حداد في الجيش اللبناني وإحالته للمحاكمة لتعاونه مع العدو الإسرائيلي، وفي اليوم نفسه، أعلن حداد في مؤتمر صحافي عقده في مستوطنة المطلة إنشاء «دولة لبنان الحر» وأعلن بيروت عاصمتها.

1981/4/2: اشتباكات بين القوات اللبنانية والجيش السوري وحصار مدينة زحلة استمرّ حتى تاريخ 30 تموز 1981.

حرب الجبل 1983: اشتباكات ومعارك متبادلة بين القوات اللبنانية والجيش اللبناني من جهة والحزب التقدمي الاشتراكي بمساندة الأحزاب الوطنية من جهة أخرى؛ استمرت هذه الحرب حتى العام 1984 وتحديداً 14 شباط بسقوط الشحار الغربي بأيدي الحزب التقدمي الاشتراكي.

انتفاضة 6 شباط 1984: اشتباكات عسكرية بين «حركة أمل» وحلفائها من قوى اليسار اللبناني وبين الجيش اللبناني الذي أمطر الضاحية الجنوبية بقذائف عشوائية وقد امتدت الاشتباكات إلى بيروت الغربية وأعقبتها سيطرة «أمل» و «التقدمي» على تلفزيون لبنان المعروف بـ «القناة 7» ومركزه تلة الخياط.

1984/3/22: اشتباكات في أحياء بيروت الغربية بين «الحزب التقدمي الاشتراكي» و «المرابطون» نتج عنها سيطرة عناصر الحزب التقدمي الاشتراكي على المقر المركزي لقيادة حركة الناصريين المستقلين ومبنى «إذاعة صوت لبنان العربي» وجميع مراكز «المرابطون» في بيروت ومنزل رئيس الحركة إبراهيم قليلات.

1985/3/30: اشتباكات بين القوات اللبنانية من جهة والحركة الوطنية والتنظيم الشعبي الناصري من جهة أخرى أسفرت عن سقوط 1000 قتيل وجريح و60 ألف مهجر وانسحاب مسلحي القوات اللبنانية من الجبهات كافة (بتاريخ 23 نيسان 1985).

1985/5/20: حرب المخيمات الفلسطينية: انتهت بتاريخ 1988/1/20 أي استمرت 33 شهراً.

1985/9/16: اشتباكات ومعارك عسكرية بين «حركة التوحيد الإسلامية» وتنظيمات إسلامية من جهة والأحزاب الوطنية والحزب العربي الديموقراطي بمساندة الجيش السوري من جهة أخرى أسفرت عن سقوط 120 بين قتيل وجريح وانتهت بتوقيع اتفاق برعاية الرئيس السوري حافظ الأسد نص على انسحاب المقاتلين ودخول القوات السورية إلى طرابلس.

1985/11/20: «معركة العلم» وهي عبارة عن معركة بين «الحزب التقدمي الاشتراكي» من جهة وحركة «أمل» مدعومة باللواء السادس في الجيش اللبناني من جهة أخرى على خلفية ما حصل في القناة 7 في تلة الخياط بعد قرار الحزب التقدمي الاشتراكي بتعطيل الاحتفالات بعيد العلم.

1986/1/15: انقلاب دموي يُنهي إيلي حبيقة ويغتال الاتفاق الثلاثي الموقع في دمشق بتاريخ 1983/5/17.

1987/2/16: اشتباكات بين حركة «أمل» من جهة والحزبين التقدمي الاشتراكي والشيوعي من جهة أخرى في منطقة الطريق الجديدة وامتدت إلى مناطق أخرى في رأس بيروت وأسفرت عن سقوط 50 قتيلاً و220 جريحاً وإعادة دخول القوات السورية لتسلم زمام الأمن في بيروت الغربية بتاريخ 21 شباط 1987.

1989/3/14: «حرب التحرير» قادها قائد الجيش اللبناني العماد ميشال عون ضد القوات السورية لإخراجها من لبنان وانتهت باقتحام القصر الجمهوري في بعبدا بمؤازرة الجيش السوري ولجوء العماد عون إلى السفارة الفرنسية (13 تشرين الأول 1990).

1989/12/24: معارك إقليم التفاح بين حركة «أمل» و «حزب الله» وقد استمرت لغاية 1990/7/17.

1990/1/31: «حرب الإلغاء» بين الجيش اللبناني بقيادة العماد ميشال عون و «القوات اللبنانية»، وأسفرت حسب «الدولية للمعلومات» عن سقوط 594 قتيلاً و650 جريحاً في صفوف الجيش و650 قتيلاً و800 جريح من «القوات».

حدثان في نيسان

إذا كان نيسان اللبناني الذي بدأ داخلياً في 13 نيسان 1975، قد تطوّر باتجاه احتلال صهيوني بلغ ذروته مع عام 1982 باحتلال بيروت العاصمة اللبنانية وإدارة أشرس الحروب الطائفية والمذهبية بين اللبنانيين، فإن نيسان العراقي الذي بدأ باحتلال العاصمة العراقية بغداد قبل 12 عاماً، قد تطوّر بالمقابل باتجاه إطلاق نزعات غلب عليها الطابع الطائفي والمذهبي والعرقي حتى بات ممكناً لجوزف بايدن نائب الرئيس الأميركي أن يتحدث عن «كونفدرالية» بين العراقيين، مذكراً بما سبق أن طرحه كمشروع لمستقبل العراق حين كان شيخاً في الكونغرس الأميركي.

الحدثان يشتركان في أنهما «ثمرة» تفاعل بين ثغرات في الداخل ومؤامرات من الخارج، ولكنهما يشتركان في أنهما بالمقابل لم يخضعا لتحليل عميق مجرّد من الأهواء والعصبيات والأحقاد، وأن الأطراف المعنية بالحدثين، سواء الداخلية أو الخارجية، لم تقم بالمراجعات النقدية الجريئة لسلوكها لكي تعيد تحصين مجتمعاتها ودولها بما يحميها ويحمي الأمّة كلها من تداعياتها.

لقد هربنا جميعاً في لبنان والعراق من أية مراجعة نقدية جريئة، لذلك، أقلّ ما هو مطلوب منا، أن نعيد قراءة المشهدين «النيسانيين» اللبناني والعراقي، وأن نمتلك الجرأة لكي يقوم كل منا بنقد تجربته، قبل الاسترسال بنقد غيره، فنضع أنفسنا ومجتمعاتنا على طريق المصالحة الشاملة، والمشاركة الحقيقية، وكلاهما مع المراجعة ثالوث القوة التي تقوم عليها المقاومة الواسعة للاحتلال وإفرازاته، والهيمنة الاستعمارية ومشاريعها.

معن بشّور

(*) النص الكامل على موقع «السفير»: www.assafir.com